"من مصادر تاريخ الجزائر المعاصر"
تاريخ ســـوف في كتابات " فيرو"
(نموذجا)

أ. إبراهيم مياسي
جامعة الجزائر.

ما من شك أن الكتابات الأجنبية عن وادي سوف خلال الحقبة الكالحة للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، تمثل المصادر الأساسية لنسج المعرفة التاريخية للمنطقة، و ذلك من وجهة نظر الآلة الاستعمارية الفرنسية فقط ، و رغم ذلك فإن الباحث التاريخي في هذا المجال لا يمكنه أن يستغني عن هذه الدراسات والأبحاث.

و تنحصر هذه الدراسة حول كتابات " شارل فيرو " (Laurent-Charles Feraud) الذي ولد في 05 فبراير 1829م بمدينة **نيس** ،وتعلم في ثانوية تولون (Toulon)،وفي سن السادسة عشر من عمره (1845) دخل إلى الجزائر ليشتغل في وظيفة بسيطة بالإدارة المدنية بشرشال، وأول ما قام به " فيرو" في أثناء هذه الفترة، هو تعلم اللغة العربية في أسرع وقت ، و عندما بلغ التاسعة عشر كان كاتبا بالعاصمة بالإدارة العامة (الحكومة العامة) إلى أن التحق بوظيفة التراجمة بالجيش الإفريقي ، و هذا عام 1848م حيث أرسل إلى بجاية لمساعدة حاكمها في إصلاح شؤونها الإدارية .

وقد بدأ شارل فيرو وظيفته الرسمية داخل جيش الاحتلال و ضمن أصحاب الحملات العسكرية من كبار الجنرالات و ضباط الحرب بداية من سنة 1849م ، فكانت له عدة مدونات هامة إلى جانب القادة العسكريين لمقاطعة قسنطينة كل من الجنرالات "بوسكيه" (Bosquet) ،"كامو"(Camou) "مواسيات"(Moissiat) ،"راندون" (Randon) ، "ماك ماهون" (Mac-Mahon)،" لوفابفر"(Lefebvre) ،" غاستو"(Gastu) ،" ديفو" (Desvaux)، "بيروقو" (Perigot) ،و"دو لاكروا" (De la Croix)؛وهناك أنجز معظم أعماله العلمية والتاريخية والأثرية .

وقد شارك ضمن سلك المترجمين العسكريين للجيش الإفريقي (حسب تسميته في البداية) في معظم الحملات العسكرية بالشرق الجزائري طيلة عشرين سنة ، حيث تميز دون غيره من المترجمين و الإداريين بشخصيته الفريدة من نوعها،حيث أثارت انتباه قادته العسكريين والإداريين ،مما جعله محل اهتمام الجميع ،ولهذا تدرج في الوظائف العسكرية و الإدارية وحتى العلمية،إلى أن وصل إلى مراتب عليا وعمل إلى جانب الحاكم العام المدني للجزائر الأميرال الكونت " دوقيدون" (De Gueydon) .

وعند قدوم الجنرال " شانزي" (Chanzy) في 19فبراير 1872م ،ثبت "فيرو" في منصبه، نظرا لتفانيه وإخلاصه لمهمته ،حيث منح صليب ضباط لفيف الشرف ،بمقتضى قرار 24 أوت 1874م (وكان من فرسان هذا الصنف منذ 1860م)،وكانت تربطه بـ"شانزي" علاقة مودة خاصة جعلته خادمه الوفي لتنفيذ أفكاره وبرنامجه الاستعماري، كما كان يطلعه على حوادث الصحراء.

كما كلف من طرف حكومة الجمهورية بعدة مهام في تونس وطرابلس سنة 1876م،ثم عين في منصب قنصل فرنسا العام بطرابلس الغرب من 5 نوفمبر 1878م إلى 04ديسمبر 1884م ، و توفي في 19ديسمبر سنة 1888م في منصبه برتبة وزير مفوض بطنجة ، التي كانت مركزا لكبار القناصلة و السفراء الفرنسيين ، حيث كان الصراع على أشده بين مصالح الفرنسيين و الأوروبيين حول المغرب الأقصى.

كما تولى عدة وظائف أخرى منها رئاسة الجمعية التاريخية الجزائرية من 1876م إلى 1878م ، والتي كانت لها مهام علمية وتاريخية، تخدم بالدرجة الأولى الغزو الحضاري الشامل التي تقوم به فرنسا الاستعمارية، وتنشر أعمالها

العلمية القيمة رغم ما فيها من دس في مجلتها الشهيرة " المجلة الإفريقيـــة " (La Revue Africaine) [1].

من مؤلفاته العلمية و التاريخية :

- ترجمة كتاب العدواني تحت عنوان :

Le Sahara de Constantine et de Tunis , Alger , Bastide 1868, 208 p.

Le Sahara de Constantine , Alger , Jourdan, 1867,527p .

Les Interprètes de l'armée d'Afrique, Alger, Jourdan, 1876,479p.

Blida , Récits selon la légende ,la tradition et l'histoire, tome II,Alger,Jourdan,1887.

- الحوليات الليبية .
- تاريخ بجاية – جيجل – عنابة – القالة – عين البيضـــاء – ســـكيكدة – تبسة .
- مونوغرافيا قصر الباي بقسنطينة.
- و غيرها من المؤلفات الهامة التي يجب الاطلاع عليها .

أولا: **كتاب العدواني.**

ومن أهم أعمال "فيرو" ترجمة تاريخ العدواني [2] ،ونشـــره في مجلـــة (Recueil) التي كانت تصدر بقسنطينة 1867م،وهي تعتبر من أوفى وأكمـــل النسخ بعد نسخة خراز.

ويذكر "فيرو" أن النسخة التي ترجمها من مخطوط تاريخ العدواني ،هـــي نسخة السيد علي باي بن فرحات ،حاكم وادي سوف ووادي ريغ ،ولاحظ

"فيرو" أن النسخة رغم طولها بالنسبة للنسخ الأخرى ،ما هي إلا "مختصر" من مجلد ضخم،وكان "فيرو" قد كتب المقدمة في 12نوفمبر 1867م.وجاء في آخر الترجمة أن الناسخ هو الشيخ إبراهيم بن محمد التاغزوتي،ولكن دون ذكر تاريخ النسخ . ومهما كان الأمر فإن هذه النسخة تعتبر من أقدم النسخ عهدا والنص المترجم بلغ عند "فيرو" حوالي مائة وخمسين صفحة(من صفحة 25 إلى صفحة 175 ،والكتاب يحتوي على 208 صفحة)،و لم يصف "فيرو" النسخة التي ترجم عليها ،مقاسها وعدد صفحاتها ولون حبرها وخطها.

ولكن "فيرو" اعترف بأنه لم يكن الأول الذي اطلع على تاريخ العدواني وعرف أهميته . فقد ذكر أن "أدريان بيربروجر"(Adrien-Berbrugger) (1801 -1869) محافظ المكتبة والمتحف بالجزائر،ورئيس الجمعية التاريخية الجزائرية،و أحد الجواسيس الفرنسيين الذين نزلوا سوف (قبل احتلال فرنسا لها) عن طريق نفطة ، وكان على ظهر حصان ،وقد كتب "بيربروجر" أنه حصل على نسخة من تاريخ العدواني بتاريخ 28 نوفمبر 1850 م ،وعلق على ذلك بأنه مخطوط يتحدث عن تاريخ المنطقة ،وهو مؤلف من الذاكرة من وحي قراءة لتاريخ العدواني، (أي أن التاريخ الحقيقي للعدواني مفقود ،والموجود منه مجرد ذكريات مختصرة).

وتحتوي ترجمة "فيرو" على إضافات منها التعاليق التي أوردها في الهوامش ،وخاصة منها المتعلقة بالتقاليد والروايات الشعبية ،حيث يصطاد في الماء العكر ليمرر رسالته الاستعمارية، ذلك بإثارة الفتن بين الناس والنبش في الخلافات القديمة.

كما خصص بعض الصفحات في آخر عمله، تحدث فيها عن تاريخ وجغرافية الزيبان وواد ريغ ،وسوف ،وورقلة واعتمد "فيرو" في هذه الدراسة على المصادر العربية والأجنبية، كابن خلدون،والعياشي ، و"شارل مارتن" (Martin) ،و"بيربروجر" ،وتقارير القواد الفرنسيين في إقليم قسنطينة،بالإضافة إلى اعتماده على الروايات الشعبية ــ الشفوية منها والمكتوبة.

ثانيا: صحراء قسنطينة.

استفاد الكثير من الباحثين في تاريخ (سوف) من كتاب "صحراء قسنطينة" والذي نشر بالمجلة الإفريقية مسلسلا في عدة أعداد ،ونورد منه بعض المعلومات في هذه الدراسة من تاريخ (سوف).

بدأت فرنسا تفكر في احتلال إقليم (سوف) منذ الأيام الأولى من سقوط مدينة قسنطينة في شهر أكتوبر 1837م، حيث برهنت الأحداث على أن (سوف) ــ أو ما يعرف في ذلك الوقت بصحراء قسنطينة ــ هي القاعدة الخلفية للمجاهدين والزعماء.

وبعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة بسكرة سنة 1844م ،التجأ خليفة الأمير عبد القادر وقائد الجهاد بالمنطقة ، محمد الصغير بن أحمد بلحاج إلى وادي سوف ليعتصم بها.

لهذا عملت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر جديا على مد احتلالها إلى سوف ،فأرادت جس نبض سكان المنطقة قبل الإقدام على تنفيذ مشروعها فبعثت بإحدى شيوخ أولاد عمر ليخبر أهل سوف البلاغات و الإعلانات التي أصدرها الوالي العام لسنة 1845م، وقد تقبل سكان المنطقة هذه الإعلانات بقبول حسن لأنها تراعي مصالحهم ، وما دامت أيضا

لا تضـــايق قوافلهم نحو الشمال، لهذا أسرعت القـــوات الفرنســـية بتجهيـــز الطوابير الـــعـــســـكرية للســـيـــر نحو إقليم وادي سوف ويقول الضـــابط "لورونت شارل فيرو" في كتابه: "صحراء قسنطينة" و المنشور في أعداد متتالية من المجلة الإفريقية، مايلي:" ..خلال السنوات الأولى لاحتلالنا للصحـــــراء ، ومن أجل تثبيت مؤسســـاتنا اقتضت الضـــرورة إخضـــــاع أولاد نائـــل ثم الأوراس و النمامشة، حتى نتفرغ ونـــهـــتم بكل جـــديـــة لعملية احـــتلال ســـــوف المضطرب جـــدا بتأثير من ابن أحمد بلحاج الذي طـــــرد مـــن الأوراس مـــــن طـــــرف الجنـــــرال " بـــيـــــدو" (Bedeau) فالتجـــأ إلى الـــــوادي ...".[3]

و من هنا بـــدأ الاهتمام الفرنسي يـــزداد بمنطقـــة وادي ســـــــوف ، ففي سنة 1848م شـــرعت الإرســـاليات الاستكشـــافية في التوافـــد علـــى ســـــوف، حيث وصـــل الضـــابط "بـــراكس" (*PRAX*) للإقليم قـــادما إليه من الجنوب التونسي ، ومن المعلوم أن الضابط "براكس" هو من قدماء ضـــباط البحرية ، غير أنه هذه المرة أراد أن يتعرف على بحار الرمال بالصحراء ، فقـــام بهذه الجولة عبر الجنوب الشـــرقي الجزائري ، فزار وادي سوف ووادي ريـــغ وبسكرة ، ثم أصدر دراسة هامة استفادت منها المصالح الاستعمارية[4] وهـــي تحت عنوان :" تقرت وسوف" ثم أعقبها بدراسة أخـــرى حـــول التجـــارة الصحراوية والتجارة العـــابرة للصحراء عنوانها بـــ:" تجارة الجزائر مـــع مكـــة والسودان" وأصدرها بباريس سنة 1849م. وفي سنة 1850م زار سوف الباحث المعروف " أندريان بربروجار " حينما عقد العزم على استكشـــاف الواحـــات الجزائرية؛ فانتقل إلى تـــونس عن طريق مدينة ســـــوق أهـــــراس، فـــزار

واحات الجريد (الجنوب الغـــربي التونسي) ومـــنه انتـــــقل إلى ســـــوف وتجول في أرجائه، ثم زار وادي ريـــــغ ومدينة ورقلة و وادي ميزاب و المنيعة و تـــــوات [5]؛ وقد تحصل من كل هذه المناطق التي اجتازها عن معلومـــات غزيرة جغرافية و أثـــرية جمعها و أصدرها في دراسة قيـــمـــة تحت عـــنـــوان " النتائج المتحصل عليها من الاستكشافات المنجزة للتوغـــل في الســـــودان" نشرت بالنشرة الخاصة للجمعية الجغرافية بباريس سنة 1862م،و قد أعطت هذه الدراسة معلومات هامة عن ســـــــوف للمصـــالح الاســـتعمارية الفرنســـية ســـاعدتها فيما بعد ، على التـــوغل في المنطقة.

كذلك قـــام الملازم "روز" (Rose) ،نائب رئيس المكتب العربي، بـــرحلة إلى ســـــوف سنة 1852م، برفقة فـــرقـــة من "القـــوم" ،والتي وصـــلت إلى بلدة قـــمـــــار ، قادمة من الفـــيـــض بالزاب الشرقي، فـــــراقبت أمـــور وشؤون المنطقة عن كثب و قـــدمت معلومات دقيقـــة ســـاعدت القـــوات الفرنسية في زحفها على سوف .

وبعد أن مـــهدت هذه البعثات الطريق للقـــوات الفرنســـية لاحـــتلال ســـــوف، فإن الوضعية السياسية و الاجتماعية بالمنطقة كانـــت متـــدهورة زادت في تسهيل مهمة المصالح الاستعمارية في بسط نفوذها، ذلـــك أن وادي ســـــوف قد تـــــأثـــــر بالأحـــداث المحلية القريبة منه، كاحتلال بسكرة وثورة الزعاطشة، و الصراع الذي صاحب هذه الوقائع والمنافسات الشـــديدة التي دارت بين عائلتي بوعكاز (أوالدواودة) و ابن قـــانة من جهة وخصومات ونزاعات سلاطين بني جـــــلاب بتقرت فيما بينهم حول الحكم مـــن جهـــة أخـــرى.

وفي جانفي 1852م توفي سلطان تقرت الشيخ عبد الرحمان(الملقب بـ"بوليفة") تاركا ابنا و وريثا وهو عبد القادر الذي لم يتجاوز عمره ست سنوات، لهذا تولى الحكم تحت وصاية جدته لاله عيشوش والتي كانت لها خبرة في هذا الميدان، وهي من عائلة ابن قانة.غير أنه كان هناك منافس للخلافة وهو سلمان بن علي الكبير، الذي هو ابن عم الحاكم المتوفى [6]،وكان عمره ثماني عشرة سنة؛ وقد تلقى الدعم من تماسين المركز الأساسي **للطريقة التيجانية** بالمنطقة؛ كما آزره و وقف معه الشريف محمد بن عبد الله،سلطان ورقلة، و لهذا عارض الوالي العام للجزائر هذا الإجراء وكان يفضل تعيين واحد من أولاد ابن قانة حاكما على تقرت ،لكن السكان قاوموا هذه الفكرة حينذاك، لهذا لم يبق أمام فرنسا إلا التدخل العسكري المباشر لتحقيق هدفها.وفي نفس الوقت حصل سلمان على دعم أولاد سعود من (سوف) وقدموا له ثلاثمائة جندي من المشاة.وبمساعدة هؤلاء استطاع أن يستولي على تقرت بطريقة مفاجئة في أول أفريل 1852 م وبمباركة زاوية تماسين .

أقنع القادة الفرنسيون في شرق الجزائر قائدهم الأعلى الذي هو الوالى العام للجزائر المتردد بالاعتراف بسلمان حاكما على تقرت ، غير أن اشترط على سلمان أن يأتي شخصيا إلى بسكرة ، أو باتنة لإبداء خضوعه بنفسه للسيادة الفرنسية . ويبدو أن سلمان قد رأى في ذلك خدعة لإبعاده عن تقرت حتى يقع فيها انقلاب موال لابن قانة في غيابه، ولذلك رفض أن يلبي الشرط؛ لهذا قام الفرنسيون بقطع طريق قوافل تجار القمح من بسكرة إلى تقرت، كما سمحوا للفرسان الاحتياطيين من بسكرة أن يغيروا على قافلتين تجاريتين من سوف[7].

أرسل الفرنسيون أحمد باي بن شنوف إلى (سوف) كقائد عليها حتى يتمكن من التأثير على السوافة وإبعادهم عن مساندة سلمان، غير أنه فشل في مهمته؛لكن سلمان بدأ في مداهمة بعض السوافة .

ففي أفريل 1853م خسر كثيرا من الدعم الباقي له في سوف عندما أغار على كوينين على رأس ثمانين رجلا لقتل بعض السياسيين الخصوم له و الذين لجأوا الى هناك،وهم من قدماء خدم عبد الرحمان ؛ وقد استطاع عدد من هؤلاء الخصوم أن يفروا إلى قمار التي رفضت تسليمهم، ولأن قوات سلمان كانت من الضعف بمكان حيث لا تقدر على مهاجمة قمار التي صدت الأبواب في وجهه،لهذا اكتفى بالحوم حول الحمى ثم الرجوع الى تقرت[8].

وفي ماي 1853م أمر الوالي العام للجزائر بحصار اقتصادي جديد على وادي ريغ وسوف[9]،ثم أظهرت بعض مقاطعات سوف كالزقم والبهيمة و قمار وتاغزوت و كوينين علاقاتهم الحسنة ونواياهم الطيبة مع فرنسا وأرسلوا وفدا إلى بسكرة ليعرض دفع الضرائب المعهودة عليهم لهذا سمح لهم بالدخول إلى أسواق بسكرة . ولما عرض الوادي وبعض القرى الأخرى نفس العرض رفض لهم، [10] وتعطلت قوافلهم التجارية.

وفي نفس الوقت أعلن سلمان نفسه خليفة لشريف ورقلة ليعاونه في تجنيد أهل سوف،كما طلب من باي تونس دعمه ضد الفرنسيين[11] ،لأن الحاكم العام بدأ يخطط لعمل عسكري مباشر لاحتلال تقرت وسوف،وهذا بعد ما اقترح أن يجعل أحد أولاد شنوف حاكما جديدا على تقرت ، غير أنه عوض باقتراح تقدم به القائد العسكري للإقليم العقيد

"ديفو"(Desvaux) بتعيين بوعكاز تبعا لقاعدة سياسة "فرق تسد" لتعميق الخلاف ،وفي أكتوبر 1854م أعلنت بلدتا كوينين وتاغزوت اذعانهما في بسكرة، وبذلك فإن المصالح المتضادة و المتصارع عليها في الصحراء أثرت على أهل سوف فانقسم السكان إلى صفين حسب مواقفهما:

**الصف الأول من الطرود ، ويتكون من أهل الوادي و قمار والبهيمة والدبيلة،وانحازوا إلى عائلة بوعكاز ،بعد إعلانهم عن تحالفهم مع تماسين ومناصرته ضد تقرت ،وكذلك تحالفهم مع قبائل سعيد ولد عامر، وأولاد السايح والشعانبة والمخادمة بورقلة .

**الصف الثّاني :ومتكون من أولاد سعود ،وهم سكان الزقم وكوينين وتاغزوت ، الذين مالوا إلى عائلة ابن قانة ودعموا تقرت ووادي ريغ و انضووا تحت سلطة بني جلاب.

وهكذا نلاحظ أن الصراع الذي حدث في الزيبان بين الأخوة الأعداء قد امتد لهيبه إلى وادي سوف ووادي ريغ، وللأسف لم يخدم إلا المصالح الاستعمارية، حيث ساعدها في مد نفوذها بعد تكريس الشقاق ليسهل عليها قهر مقاومة المجاهدين البواسل في هذه المضارب البعيدة والصعبة و الشاسعة.

وفي خريف عام 1854م ، راجت أخبار ببسكرة في الأوساط الاستعمارية مفادها أن القوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليات عسكرية هائلة ، للهجوم على إقليم سوف لتغزوه، لأنه، حسب زعمهم،

موطن للثوار والمشاغبين يجب القضاء عليه ، و هو الآن يأوي ويساعد ثائرة سلطان ورقلة الشريف محمد بن عبد الله ففي سنة 1854م.

التجأ الشريف محمد بن عبد الله إلى سوف[12] ،بعدما فقد مركز قيادته بورقلة و أغلب أنصاره بها ،حيث تشير التقارير العسكرية أن أعيان ورقلة – وهم عبد القادر بن كرميا (كبير بني سيسين)،والحاج بن الحاج معيزة(كبير بني أوجين)،والحاج محمد (كبير بني إبراهيم)،والحاج بوقلة (كبير العرش لبني إبراهيم) ــ قد خضعوا للسلطة الفرنسية و جاءوا إلى البيض يوم 11 سبتمبر 1854م لدفع ماعليهم من ضرائب إلى سي حمزة ــ زعيم أولاد سيدي الشيخ،والخليفة بالصحراء ــ ؛ لذلك تركهم الشريف محمد بن عبد الله وخيم بقوته تحت أسوار تقرت، وهذا من أجل أن يجمع حوله أهل سوف ليعاود بهم الثورة ومقاومة الاحتلال الفرنسي،و بعد ملاحقة القوات الفرنسية له ومحاصرته ما بين مدينة الوادي و بلدة الطيبات القبلي ، تمكن القائد سي بن هني من مطاردته وطرده من المنطقة الممتد ما بين وادي ريغ ووادي سوف فاضطر إلى الفرار نحو الجريد [13] ليجمع شتاته لمواصلة الجهاد ضد المحتلين.

الإحالات

(1)– L. PAYSANT , " Un Président de la Société Historique Algérienne", in Revue Africaine, n° 280, 1er Trimestre 1911, pp.5 – 15.

(2) – محمد بن محمد بن عمر العدواني،تاريخ العدواني ، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد اللـــه ، بيروت، دار الغرب الأسلامي،ص: 38 – 40.

-(3)Charles FERAUD, » Les Ben - Djellab sultans de Tougourt, Notes historiques sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n°26 (1882) ,pp.109 -110.

- (4)PRAX,<< Touggourt,Le Souf >>, in Revue de l'Orient et de l'Algérie,1848, TomeIV,p.129.

-(5) A . BERBRUGGER, « Projet d' Exploration »- in Extrait à la Bibliothèque Nationale , Alger, S.D.,8p.

– (6) MAGALI - BOISNARD, Sultans de Touggourt, Paris,Libraire Orientaliste Paul Geuthner,1933,p.128.

– (7)Nico Kielstra, << The dicline of tribal organization in the Souf (S.E.Algéria) >>, in Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée,n° 45 - 3eme trimestre, 1987,pp.14-15.

– (8)Charles FERAUD, << Les Ben - Djellab... >> op. cit., p.113.

- (9)Nico Kielstra, << The decline of tribal... >> ,op. cit., pp.15-16

– (10)Lettre de la division de Constantine(Cabinet n° 275) à monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie,Constantine ,le 26 Juillet 1854. A.O.M.,1H.11.

– (11)Nico Kielstra, op. cit.

– (12)Armée d'Afrique - Province d'Oran - A M. le Gouverneur Général, Oran,le 23 septembre 1854, doc. n° 611, A.O.M. ,1H.11.

– (13)Feraud , » Les Ben - Djellab... » op. cit. , p.115.